سلسلة الفتوحات الإسلامية

فتح إفريقية

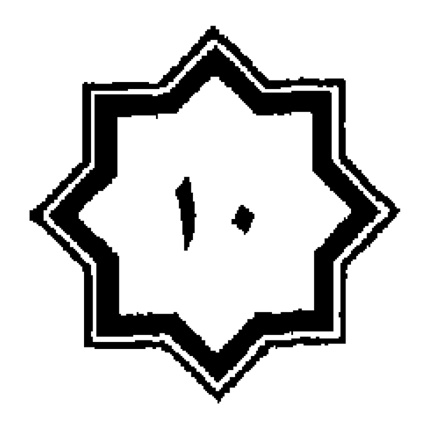
معركة سبيطلة

محمد ثابت توفيق

١٠

مكتبة العبيكان

سلسلة الفتوحات الإسلامية



معركة سبيطلة

(فتح إفريقية)

بقلم

محمد ثابت توفيق

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

لجنة التأليف والترجمة بمكتبة العبيكان

معركة سبيطلة : فتح إفريقية.ـ الرياض.

٤٥ ص ؛ ١٧x٢٢سم (سلسلة الفتوحات الإسلامية ؛ ١٠)

ردمك: ٨-٩٣١-٢٠-٩٩٦٠

١ ـ فتح إفريقية　　أ ـ العنوان　　ب ـ السلسلة

ديوي ٩٥٣,٠٢٤　　٢٢/٠٩٦٦

ردمك: ٨-٩٣١-٢٠-٩٩٦٠　　رقم الإيداع: ٢٢/٠٩٦٦

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م

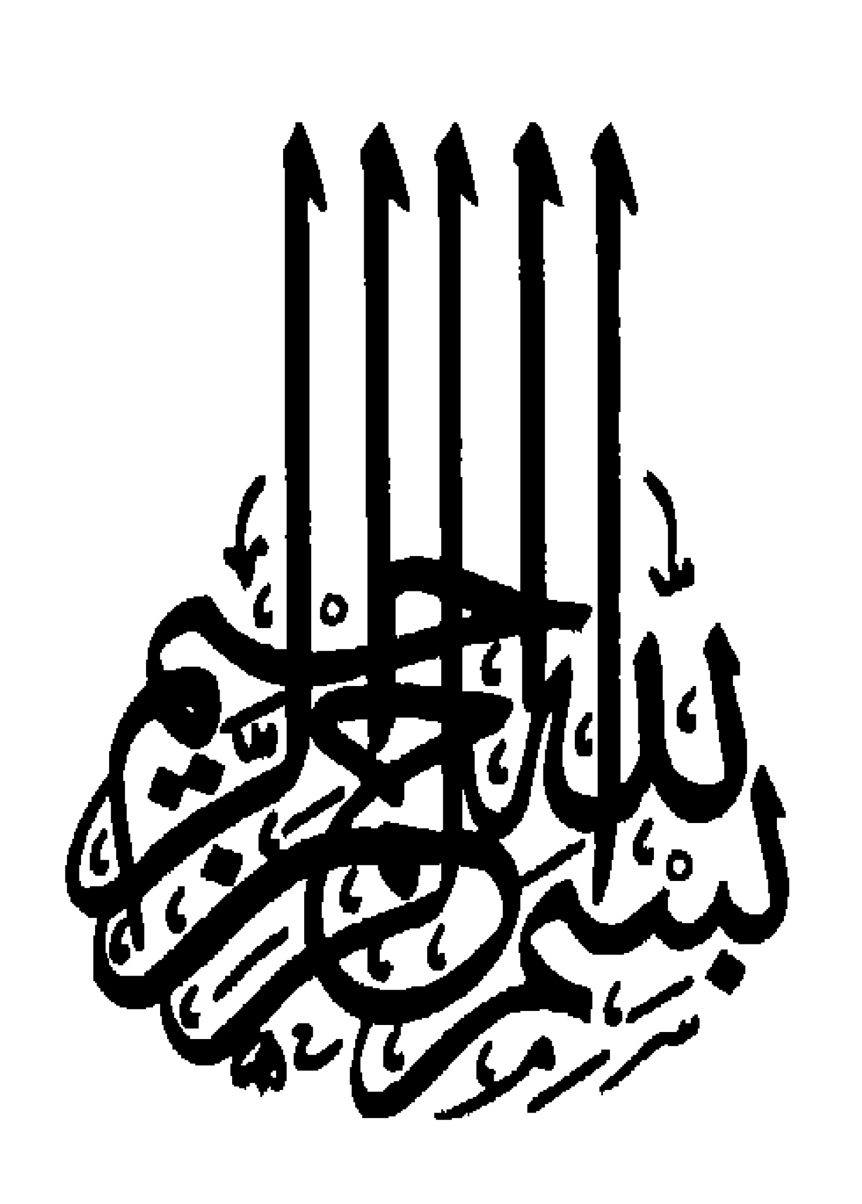
الناشـــــر

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص. ب: ٦٢٨٠٧　الرمز: ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

فتح برقة

المسلمون يتحدون جبابرة الروم:

كانت الروم هي إحدى أكبر قوتين في العالم وقت وفاة الرسول ﷺ، إن لم تكن هي القوة الأولى، فلم يكن ينافسها في هذه المكانة سوى الفرس، وقد استطاع الروم هزيمتهم في نهاية حروب كانت بينهم.

ورغم نفوذ الروم وقوتهم إلا أن هذا لم يُخِف المسلمين الذين يسعون إلى نشر دين الله في الأرض، عملاً بأوامره عز وجل، واتباعاً لتعاليم رسوله ﷺ، ورغبة في جهاد أعداء الله الذين يمنعون دين الله الحق من الوصول إلى الناس في كل مكان.

انتصر المسلمون على الروم وأخرجوهم من بلاد الشام فرحل هرقل من غير رجعة، وفر أرطبون فلسطين إلى مصر.

ورغم انتصارات المسلمين المتتابعة إلا أن البلاد التي تقع تحت سيطرة الروم ما تزال واسعة، فاستأذن القائد المسلم الشجاع عمرو بن العاص في فتح مصر، فوافقه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فسار عمرو إليها واستطاع فتحها بعد طول عناء، وذلك في سنة عشرين من هجرة الرسول ﷺ.

استمرار خطر الروم:

هربت مجموعات من الروم عبر البحر إلى إفريقية، وكانت إفريقية ذات خطورة خاصة، فهذه البلاد الواقعة من بعد مصر وليبيا، كانت عبارة عن صحارى ممتدة، يقيم عدد من القبائل فيها وهم يسمون بـ «البربر»، زيادة على بعض المدن التي كان الروم يحتمون فيها، ويختبئون من خطر الوقوف أمام المسلمين، ولكنهم كانوا يعُدُّون العدة، ويجهزون السلاح لمعاودة الهجوم على البلاد التي أضاء الإسلام أنحاءها.

عمرو يفكر في التغلب على الروم في برقة:

وذات يوم وقف الفاتح عمرو بن العاص على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ينظر إلى أمواجه المتداخلة، وهو يفكر في صمت، كان إلى جواره ابن خالته عقبة بن نافع أحد الواقفين في مقدمة الصفوف في فتح الشام ومصر، وقفا على هذه الأرض التي قدر الله أن ينتشر نور الإسلام فيها على أيديهما وأيد المسلمين، بسيوفهم اللامعة، وشجاعتهم الشديدة، ورغم هذا فلقد رأى عقبة عمراً مشغولاً بأمر لا يعرفه، فلما سأله أخبره بأنه يتمنى التغلب على خطر الروم نهائياً، وأن يحرر إفريقية من شرهم كما حُرِّرَت الشام ومصر.

وبعد تفكير قرر عمرو أن يبدأ بفتح برقة وهي أول مدينة تقع بعد مصر من جهة الغرب، من جهة إفريقية. ولكن كيف يسير في جيش من المسلمين إلى أهلها لفتحها، وهو لا يعرف الطريق جيداً إليها، زيادة على أنه لا يعرف شيئًا عن طبيعة أهلها من البربر، وهل سيقفون إلى جوار الروم ضد المسلمين؟. أم أنهم سيقفون على الحياد؟ أم يحاربون الروم مع المسلمين؟ وهو أمر خطير ينبغي أن يعرفه عمرو جيداً قبل أن يبدأ في فتح برقة، وهذا الأمر يتوقف على مدى رضا أهل برقة عن الروم.

عمرو يرسل عقبة في مهمة عاجلة:

إنَّ عمراً يعلم بأن النصر من عند الله، ولكنه يحب أن يتأكد جيداً من حسن إعداده للمعركة، وإخلاصه فيها، وفي إدارتها حتى قبل أن تبدأ، ذلك لأنه يعلم أن الله يحب إذا عمل أحد عملاً أن يتقنه، وأن الله يؤيد بنصره العاملين ما استطاعوا له، ولقد كان حسن الإعداد والتجهيز والتدبير للمعارك حتى قبل بدايتها سراً من أسرار انتصارات المسلمين الدائمة.

قال عمرو لعقبة: إنه يريد أن يكلفه بمهمة عاجلة، سوف يتحدد بناء عليها مصير المعركة القادمة، إذ إن على عقبة أن يسير متنكرًا إلى برقة، ومعه مجموعة من أصحابه، كي يطلع على حال أهلها، ومقدار اتحادهم مع الروم

الذين يحكمونهم، أو مقدار غضبهم عليهم، وكذلك ترحيبهم بجيش المسلمين عندما يأتون لفتح بلدهم.

كانت هذه المهمة السريعة العاجلة تتطلب كتمانًا شديداً، وكان على عقبة الفتى الذي لم يتجاوز عمره في ذلك الوقت اثنين وعشرين عامًا ألا يخبر أحداً بهذه المهمة كي لا ينتشر سرها فَيَصِلَ إلى أُذُن أحد من أتباع الروم فيفسد عليهم خطتهم.

عقبة يبدأ الرحلة:

اختار عقبة ميعاد بداية رحلته، فكانت بعد صلاة الفجر، وقد خرج هو وبقية المسلمين المسافرين معه متخفين في ملابس تجار، وكانت مهمتهم تعرف في ذلك الوقت بـ «العيون» وهم الذين ينقلون أخبار العدو إلى جيشهم كي يجهز خطته للهجوم على أساس صحيح.

ووصل عقبة إلى برقة مع تباشير - بدايات - الصباح، وبرقة هي التي تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط - داخل حدود دولة ليبيا اليوم-، وسار عقبة بين أهلها متخفياً، يسأل البربر عن حكم الروم، وهل هم راضون عنهم بعد هذه السنوات الطويلة، فعلم منهم أنهم في أشد حالات الضيق منهم، يتمنون أن يزول حكمهم عنهم في أقرب وقت، ذلك لأنهم مَلُّوا

ظلمهم وتجبرهم وتكبرهم عليهم، وعاد عقبة يسأل من جديد عن مظاهر ظلم وتكبر وتجبر الروم على البربر.

فقال البربر: إن الروم قد استولوا على كل خيرات أرضهم لأنفسهم فقط، وأنهم يكلفونهم بالعمل في هذه الأراضي بأجور قليلة جداً، مع أن خيرات هذه الأرض تعود على الروم بالمال الكثير، بالإضافة إلى ذلك فإن الروم يطلبون من البربر ضرائب مرتفعة جداً قد تزيد على أجورهم، والبربر الذين يعملون ويتعبون طوال اليوم لا يجدون في أيديهم ما يسددون الضرائب به، أو ينفقون منه على أهليهم. وعلم عقبة أن هناك سببًا آخر لغضب البربر من حكم الروم وهو أنه قد تتشاجر بعض قبائل البربر مع بعضها، ويسقط القتلى من الطرفين، فيظل الروم على الحياد يتفرجون، أو يتدخلون لما ينفع مصالحهم، وفي ذلك شديد الظلم على تلك القبائل.

ترحيب البربر باستقبال المسلمين:

بعد أن استمع عقبة بن نافع من البربر إلى أسباب غضبهم الشديد من حكم الروم عرض الحل عليهم، وهو أن يتقدم المسلمون لفتح بلدهم، كي ينصفوهم، ويعيدوا الحق إلى أرضهم.

كان البربر قد سمعوا عن المسلمين خيرًا، فأحبّوهم من قبل أن يروهم،

لذلك رحبوا ترحيباً شديداً بمجيء المسلمين إلى بلادهم، واجتمع زعماء قبائلهم مع عقبة، وعاهدوه على الوقوف إلى جوار جيش المسلمين ونصرته، مقابل أن يشعروا بالأمن والاستقرار والعدل بعد تخليصهم من سيطرة الروم.

خطاب عاجل:

وما كاد عقبة يتأكد من موقف البربر حتى أرسل إلى عمرو يطلب منه أن يسير إليه بسرعة؛ لأن أهل برقة ينتظرون جيش المسلمين ، وما كاد خطاب عقبة يصل حتى أمر عمرو المسلمين بأن يتجهزوا لفتح برقة، وتخليصها من شرور الروم وتأمين حدود الدولة الإسلامية من ناحية الغرب .

وصول جيش المسلمين:

وسار المسلمون مسرعين، فهم يشعرون بمسؤوليتهم عن الناس أجمعين، أليسوا إخوة في الإنسانية، خلقهم الله مثلهم؛ إذن فإن من الواجب عليهم توصيل نور الله ، والهدى الذي وصلهم إليهم .

أما أهل برقة من البربر المستضعفين فلقد استبشروا بحديث عقبة معهم، وتناقلوا الأخبار، وانتظروا مجيء جيش عمرو بفارغ الصبر.

ووصل جيش عمرو إلى برقة فاستقبله أهلها أروع استقبال، وأظهروا ترحيبهم به ، بل فيهم مَن أظهر رغبته في الدخول في الإسلام، ونطق

بالشهادتين، وهناك الذي صمم على البقاء على دينه، فأخبرهم عمرو بأن عليهم أن يدفعوا الجزية، وهي عبارة عن مبلغ قليل من المال، مناسب لحالة البربر، لا يقارن بما كانت الروم تأخذه منه، وهو مقابل حماية المسلمين ودفاعهم عن بلدهم، وافق البربر الذين لم يسلموا على دفع الجزية، وأصبحت المدينة كلها في فرحة غامرة بحكم المسلمين، وخلاص أهلها من ظلم واستعباد الروم لمئات السنين وبعد دخول برقة نادى عمرو بالاستعداد للرحيل غربًا إلى طرابلس.

الفصل الثاني

المسلمون يحاربون الروم في طرابلس

الروم يتحدون المسلمين من جديد:

كانت أخبار استقرار أهل الشام والأردن وفلسطين هي التي دفعت البربر من أهل برقة إلى الترحيب بالمسلمين، واستقبالهم استقبالاً رائعًا، وحينما وصلت هذه الأنباء إلى الروم المتجمعين في مدينة طرابلس علموا أنهم لو تخلوا عن المدينة لرحب أهلها بالمسلمين مثلما فعل أهل برقة؛ ولذلك فلقد أخذوا حذرهم، واستعدوا لمحاربة المسلمين من جديد، وكأنه لم تكفهم هزائمهم المتتابعة طوال ثماني سنوات منذ خرج المسلمون لقتالهم في معركة اليرموك في العام الثالث عشر من الهجرة، وحتى تاريخ هذه المعركة في العام الحادي والعشرين من الهجرة، فلم يعلموا أن المسلمين إنما ينتصرون لأنهم على الحق، وأن الروم وإن كانوا يملكون السلاح والعدد إلا أنهم على باطل؛ لأن حكمهم قام على الظلم والتحكم في الشعوب، وأن أهل البلاد التي يحتلونها قد ملوا من حكمهم، وتطلعوا إلى الإسلام؛ ذلك الدين الذي يعدل بين الناس، كان الروم يعاندون كي لا يسلموا للمسلمين دون حرب، ويظنون في أنفسهم القدرة على مقاومتهم.

خطة الروم لمقاومة المسلمين:

كانت طرابلس تتميز على غيرها من المدن بأن لها أسواراً قوية مرتفعة تمنع دخول أحد إليها، وكانت خطة الروم في محاربة المسلمين هي أن يدخلوا المدينة، ويغلقوا أبوابها عليهم، ويتركوا المسلمين خارجها، فلا يستطيعون دخولها، مما يبقي الروم في أمان بعيداً عن سيوف المسلمين المسنونة الحادة التي إن لم يذوقوا حدتها، فقد سمعوا كثيراً عنها.

ووصل المسلمون بقيادة عمرو إلى أبواب المدينة، فوجدوها مغلقة، وتطلعت عيونهم إلى أسوارها العالية الحصينة، فعلموا أنهم لن يستطيعوا تسلقها، فوقفوا في أماكنهم ينتظرون ما سوف يقدره الله للروم على أيديهم.

المفاجأة:

واستمر حصار المسلمين للمدينة شهراً كاملاً، لا يستطيعون دخولها، ولا يخرج أحد لقتالهم، وهم مصممون على الانتظار حتى يحكم الله بينهم وبين عدوهم الذي يظن أنه بذلك في مأمن فلن يستطيعوا الوصول إليه.

كانت أسوار طرابلس تحيط من ناحية اليابس بها، أما الجزء الذي يطل على البحر الأبيض المتوسط من المدينة فقد كانت أمواج البحر العالية هي التي تحميها من وصول المسلمين إلى الروم بداخلها، ولكن الله كان قد أعد

للروم الظَّلمة مفاجأة هائلة شديدة القسوة لم تكن تخطر لهم على بال.

إذ تراجعت مياه البحر إلى الوراء حتى ظهر الشاطئ لحدوث ظاهرة طبيعية هي الجَزْر، وعلم المسلمون بحدوث هذه الظاهرة الطبيعية التي سخرها الله لهم لهزيمة عدوهم الذي اختبأ طوال شهر كامل منهم، ودار المسلمون بخيولهم حول المدينة حتى استطاعوا دخولها من ناحية الشاطئ الذي أصبح جافاً تماماً، وفوجئ الروم بهم داخل المدينة، فحاولوا الدفاع عنها، ولكن كيف وسيوف المسلمين القوية جاهزة تنتظرهم منذ شهر.

ودارت المعركة شديدة لم يستطع الروم تحملاً فيها ، فراحوا كالعادة يحاولون التراجع، ويتمنون الانسحاب من أمام المسلمين بعدما كانوا مصممين على محاربتهم وهم داخل حصونهم ومن وراء جدرانها، لكنهم لما تقابلوا معهم وعرفوا قدرتهم الشديدة على القتال، وثباتهم في ميدان المعركة، وثقتهم في ربهم، وصبرهم على عدوهم تمنوا لو كانوا قد غيروا موقفهم من المسلمين.

النصر:

وسقط الكثيرون من الروم قتلى في ميدان المعركة، وراح الآخرون يحاولون الهرب بأي طريقة، وحينما لم يجدوا سوى المراكب أنزلوها في

البحر بسرعة، وساروا هاربين بها فرحين مسرورين؛ لأن كل راكب فيها قد نجا بنفسه من أمام المسلمين. وفتح المسلمون المدينة، ودخلوها منتصرين فأعطوا أهلها الأمان، وأعلموهم بأنهم سوف يحيون في عهد جديد هو عهد الإسلام.

وأخذ المسلمون يعمرون المدينة، فبنوا فيها مسجداً سموه مسجد عُمر.

وكعادته لم يكتف عمرو بالنصر على أعدائه في برقة وطرابلس وإنما أرسل بعضاً من جنوده المخلصين بجيوش عديدة لمحاربة الروم والبربر المحتمين في مدن بعيدة في قلب الصحراء، ينتظرون الفرصة للهجوم على المسلمين من جديد، فسار عقبة بن نافع إلى فزان، وبُسر بن أرطأة إلى ودَّان، وكذلك فقد صارت قوات المسلمين إلى صبراته، ومدينة شروس بجبل نفوسة، ورغم صعوبة هذه المعارك إلا أن المسلمين قد ثبتوا، وتحدوا عدوهم حتى انتصروا عليه، وصار الطريق أمامهم مفتوحاً إلى إفريقية مكان تجمع الروم الهاربين بعد خروجهم من مدنهم الكبرى، فقد تعود الروم كلما خرجوا من مدينة أن يهربوا غرباً إلى المدينة التي تجاورها ، حتى أصبحوا في إفريقية، ولكن ينبغي أن يتوقف عمرو بن العاص قليلاً، فإن عليه قبل أن يبدأ فتح إفريقية أن يستأذن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

الفصل الثالث

الإذن بالفتح

عمرو يستأذن عمر في فتح إفريقية:

كان عمرو بن العاص القائد المنتصر في بعض معارك المسلمين في الشام، وفاتح مصر، وبرقة، وطرابلس متحليًا بصفات المسلم الحقيقي التي تعلمها من الرسول ﷺ، فهو لا يبدأ في اتخاذ خطوة جديدة، أو يقدم على الدخول في حرب خطيرة دون أن يرجع إلى حاكم المسلمين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كي يستأذنه، ويأخذ موافقته، وكان رد عمر واضحاً قاطعاً.

عمر يرفض فتح إفريقية:

قال عمر في رسالته إلى عمرو:

- إنَّ إفريقية لَمُفرِّقَةٌ غادرة مغدورٌ بها، لا يغزوها أحدٌ ما بقيتُ.

يقول عمر - رضي الله عنه - إن إفريقية تُفرِّق الجيوش ولا تساعدها، ولصعوبة السير في صحرائها، ولاختلاف القبائل التي تقيم فيها، ولبقاء الروم، فترة طويلة فيها، لذلك فهي لم تتعود الأمان. وعمر الحاكم المسلم يخاف على أرواح الجند المسلمين؛ لذلك يقرر ألا يُحارب أحد منهم فيها ما بقي حيًا.

لم يكن أمام عمرو إلا طاعة رأي أمير المؤمنين طاعة كاملة؛ لذلك عاد بجيشه إلى مصر، وترك في البلاد التي فتحها غرب مصر عقبة بن نافع، الذي أقام بين البربر يعلمهم الفقه، ويقوي الإيمان داخل قلوبهم، ويعلمهم قواعد اللغة العربية.

رأي الخليفة الجديد:

ومرت السنوات تحمل أحداث جديدة في الدولة الإسلامية، إذ استشهد عمر - رضي الله عنه - وتولى خلافة المسلمين بعده عثمان بن عفان - رضي الله عنه - الذي قرر في عام ست وعشرين من الهجرة أن يعزل عمرو بن العاص عن حكم مصر، ويعين بدلاً منه عبدالله بن سعد بن أبي السرح.

أراد عبدالله بن سعد أن يثبت للخليفة أنه يستحق هذه المكانة! فكتب إليه يستأذنه في فتح إفريقية، فرد عليه في البداية بالرفض قائلاً:

«إني غير فاعل ذلك فلا آذن لك فيه؛ لأني قد شهدت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لا أغزيت إفريقية أحداً من المسلمين أبداً ما حملت عيني الماء. والله ما أرى فتحها خيراً، وقد كرهها عمر بن الخطاب من قبلي، والسلام».

ورغم أن رأي عبدالله كان أن إفريقية قليلة الجنود كثيرة الخير إلا أنه

استجاب لأمر عثمان، فيما عدا محاولات كان يجريها بين الحين والحين لتأمين المسلمين، فيهجم على الأرض القريبة منه، ويأسر الرجال من جنود الأعداء ولكنه كان يعود سريعاً.

ووصل إلى عثمان خبر هجوم عبدالله عدة مرات على أرض إفريقية القريبة إليه، فجمع الصحابة الكرام وأخذ يستشيرهم في فتح هذه الناحية، وحينما اجتمعوا لديه، عرض الأمر عليهم، فاستراحوا إلى غزوها، وابتهج عثمان برأيهم.

الإعداد لفتح إفريقية:

ودعا عثمان الصحابة الكرام للخروج لفتح إفريقية، فكان أول المجيبين هو عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق، وعبدالله وعاصم ابني عمر بن الخطاب، ورغم معارضة أبيهما عمر في هذا الفتح، إلا أن إيمانهما الشديد كان دافعًا لهما كي يكونا أول المسلمين المعلنين سيرهما إلى إفريقية.

وكان من الصحابة الكرام المجيبين لنداء عثمان عبدالله بن الزبير، ولقد سُمي هذا الجيش بجيش العبادلة لكثرة المشتركين فيه من الذين يحملون اسم عبدالله، ولا يغيب عنا أن أحد المشتركين فيه، وكان اسمه الأول عبدالله أيضاً هو عبدالله بن عمرو بن العاص، يشترك في جيش كان من المفترض أن

يقوده أبوه عمرو بن العاص لولا عزل أمير المؤمنين عثمان له، وتولية عبدالله ابن سعد بدلاً منه، ولكنه الإسلام الذي نزع مثل هذه الأمور من نفوس أتباعه، وثبت الرغبة في نصرة الله ورسوله ﷺ.

واجتمع الجيش في المدينة المنورة، فكان عدده أربعة آلاف وثمان مئة مجاهد، وساعدهم عثمان رضي الله عنه من ماله الخاص بأن جهز ألف بعير لهم، وأعطاهم من بيت مال المسلمين، وجعل عليهم أميراً حتى يصلوا إلى مصر، وقام فيهم خطيباً يحمسهم فقال:

خطبة عثمان في الجيش:

بعد أن حمد عثمانُ اللهَ وأثنى عليه قال:

«أيها المسلمون: إنكم قد أصبحتم بدار لا يصلح فيها التضجيع والتواني، وقد رأيتم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وما فتح الله عليه من أرض الأعاجم وقد افتتحتم أرض مصر، وكانت أكبر شوكة وأكثر عدداً من إفريقية، وأنا أرجو أن يظفركم الله عز وجل بها ويعينكم ويقويكم على فتحها، فعليكم عباد الله بتقوى الله الذي يبقى، ويفنى سواه، وقد كتبتُ إلى عاملي بمصر عبدالله بن سعد وعهدتُ إليه أن يحسن صحبتكم، وأن يرفق بكم، وأن يغضي عن سيئكم، وأرجو أن يكون عند عهدي وأمري إن

شاء الله ولا قوة إلا بالله، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ألا فسيروا رحمكم الله، والله عز وجل خليفتي».

وصول الجيش إلى مصر:

وتحقق لعبدالله بن سعد بن أبي السرح ما أراد، فها هو عثمان يأذن له في فتح إفريقية، ويمده بجيش يضم الكثير من الصحابة وخيرة المسلمين، لذلك راح عبدالله ينتظر وصول الجيش إلى مصر، غير مكتف بذلك، بل راح يشجع المسلمين في مصر، من الذين جاؤوا إليها فاتحين ثم بقوا فيها، ومن أهلها على السير مع جيش أمير المؤمنين لقتال الروم في إفريقية، راح يذكرهم بوعد الله بالنصر لعباده المخلصين الذين يعملون في سبيل نشر دينه، حتى اجتمع له جيش آخر.

ووصل جيش المسلمين إلى مصر، فوجد جيشاً آخر ينتظره بقيادة عبدالله، بحيث صار عدد الجيشين ما يقارب ثلاثة وعشرين ألفاً، ولم ينتظروا كثيراً إذ تحركوا مسرعين نحو إفريقية.

إلى برقة:

توقف جيش المسلمين قبل إفريقية في مكان مهم هو برقة، ذلك أن جهود عقبة بن نافع الفاتح المسلم قد أثمرت في هذه البلد ، فلقد بقي لعدة

سنوات فيه، يدعو أهله إلى الإيمان، ويعلمهم الإسلام، حتى فتح الله على يديه قلوب الكثيرين منهم، فكانت الفترة التي رفض أمير المؤمنين عمر فتح إفريقية فيها وحتى أذن عثمان للمسلمين فترة خير وبركة على البربر من أهل برقة، إذ كثر خير الله في أرضهم، وعمَّتْهم النعمة بحكم المسلمين لهم، و بالأمان والاستقرار نتيجة عدلهم، ونما الإيمان في قلوبهم، وحسن إسلامهم، ولأول مرة يعلن بعضهم استعداده للوقوف إلى جوار المسلمين في محاربة عدوهم الذي صار عدو البربر أيضاً.

الشورى:

وقبل أن يتحرك الجيش الإسلامي من جديد - بعدما ازداد عدده بانضمام البربر من أهل برقة إليه - اجتمع عبدالله بن سعد مع عقبة بن نافع لأنه كان يريد معرفة المزيد من أخبار هذه المنطقة، وكيفية استيلاء الروم عليها، وظروف حكمهم، وذلك لن يتحقق إلا إذا استمع جيداً إلى القائد الذي اشترك في فتوحات هذه البلاد تحت إمارة عمرو بن العاص، وهو الذي عاشر أهل هذه البلاد في فترة السلم ووضع السلاح، وأقام ببرقة لسنوات يتعامل مع أهلها، ويلتقي بأهالي البلاد المجاورة ممن يزورون برقة، إنه عقبة بن نافع.

أخبر عقبةُ عبدَالله بالمعلومات المتوافرة لديه عن طبيعة المنطقة، وطريقة الحياة فيها، وكيفية استيلاء الروم بالقوة عليها، والتحكم في أهلها بالقهر والظلم، وروى له أيضاً حب أهلها للإسلام، وتفضيلهم له على حكم الروم، وعن إيمان أهل برقة الشديد، وأسف كثيراً لحال مدينة طرابلس التي عاد الروم من جديد فاستولوا عليها، وانتهزوا فرصة تراجع فتوحات المسلمين لإفريقية فأعلنوا تملكهم من جديد لها.

فكر عبدالله في كلمات عقبة جيداً، فالواجب على المسلمين قبل فتح إفريقية القيام بمهمة تستوجب محاربة الروم في مكان قريب جداً، واتفق مع عقبة في الرأي على ضرورة إعادة فتح طرابلس أولاً قبل فتح إفريقية، فإن تلك المهمة عاجلة وخطيرة، وهكذا صار واجبًا على المسلمين تأديب الروم في طرابلس.

المسلمون يفتحون طرابلس للمرة الثانية:

خمس سنوات كاملة مرَّت، فقبلها وقف المسلمون بقيادة عمرو بن العاص عند أبواب هذه المدينة لمدة شهر ، كان ذلك في العام الحادي والعشرين من الهجرة، وها هم ثانية في العام السادس والعشرين يعاودون الهجوم على مدينة طرابلس وعلى الروم خائني العهد، فصار واجبًا على

المسلمين أن يفتحوا البلدة للمرة الثانية، فساروا من ناحية البحر المتوسط إليهم، وهذه المرة لم تنفعهم حصونهم، ولم تغن شيئاً عنهم من حدة سيوف المسلمين، ولم ينفعهم كفرهم الذي أغراهم بالعصيان، ووقف جيشهم في موقف صعب لا يستطيع مواجهة المسلمين، ولا يملك أن يهرب.

هكذا هزمهم المسلمون، وأعادوا فتح المدينة وكان انتصار المسلمين في طرابلس فاتحة خير عليهم، إذ نالوا الكثير من المال والغنائم.

الفصل الرابع

إلى إفريقية

جيش المسلمين في طريقه لمحاربة الروم من جديد:

عادت طرابلس إلى المسلمين وتحقق نصر الله فيها، فقام المسلمون بمهمتهم بنجاح كبير، وتحرك المسلمون من جديد يقودهم عبدالله بن سعد هذه المرة نحو إفريقية، وقد طال شوقهم لفتحها، وتطهيرها من الروم الذين سكنوا فيها، وشكّلوا خطراً على المسلمين المجاورين لها.

ووصل المسلمون إليها، فأسرعوا ينتشرون بها، ولأن هذه المنطقة كانت في ذلك الوقت منطقة واسعة جداً فهي تضم تونس وما بعدها اليوم، فإنهم لم يجدوا أحداً في البداية بها، فأخذوا ينشرون السرايا - عدد من الجنود يصل إلى عدة مئات قليلة ويسمى سرية - فكانت كل سرية تذهب في ناحية تبحث عن العدو وتقاتل مَنْ تجده، وهكذا نال المسلمون الكثير من الخيل والبغال والحمير والبقر والغنم ولكنهم لم يصلوا إلى مكان تجمع الروم بعد.

وسار عبدالله بالمسلمين من جديد، حتى يستكشف المنطقة، أخذ يقدم الطلائع - وهم بعض الجنود يسبقون الجيش لمعرفة أخبار العدو -، ولأن هذه المنطقة مجهولة لديه فلقد أخذ حذره، فهو مرة يسير بالجيش قريباً من

البحر، ومرة أخرى يبتعد عنه قليلاً، فيسير بقرب الساحل، ومرة ثالثة يبتعد كثيراً عنه، فيسير على البر.

وعاود المسلمون المسير، حتى علموا أنهم قد صاروا في وسط إفريقية، واقتربوا من الأرض التي يحكمها ملك من ملوكهم اسمه جرجين.

رسالة تحذير:

كان جرجين يُسمى جرجير أيضاً، وهو حاكم إفريقية الذي عينه الروم عليها، فهو يتحكم في مدينة طرابلس الغربية وما بعدها حتى مدينة طنجة وهو كعادة حكام الروم كثير الغرور، متكبر، يعتز بقوته وجنوده الكثيرين.

لكن المسلمين قد اعتادوا ألا يهتموا بمثل هذه الأمور، فإن القوة لديهم لها مفهوم مختلف، إنها قوة الإيمان التي مكنتهم من التغلب على ملوك الأرض قبله.

وكعادة المسلمين في دعوة كل جبار قبل محاربته أرسل عبدالله برسالة إلى جرجين يطلب منه أن يدخل في الإسلام.

ووصلت الرسالة، فغضب جرجين غضباً شديداً؛ إذ كيف يدعوه المسلمون إلى الدخول في دين الله وهو الملك القوي!.

فرد على الرسالة بقوله:

«لا دخلتُ في دينكم أبداً».

إنه يعلن التحدي، فإن كان المسلمون يدعونه في رفق إلى الإيمان فإن رده كان قاسياً، لم يراع فيه أبسط مبادئ المخاطبة مع الآخرين، فلم يبدأ رسالته بتمهيد، ولم يذكر اسم قائد المسلمين الذي يوجه الكلمات إليه، ولم يُنْهِ الرسالة بكلمات تؤكد المعنى الذي يريد توصيله، كل هذه الأمور التي اعتاد القادة والحكام عليها في مراسلاتهم المهمة، وإنما فعل جرجين شيئاً آخر مختلفًا تمامًا، إذ أرسل خمس كلمات يعلن فيها في عنف شديد، إنه لن يدخل في الإسلام أبداً، وخاطب المسلمين الذين استخدموا الرفق في دعوته بحدة لم يتعودوا عليها.

ولأنهم دعاة رحمة وخير، يريدون للناس جميعاً الهداية، ويتمنون الصلاح لهم، فقد أعاد المسلمون مراسلة جرجير، فكتب عبدالله ثانية إليه:

«لابد لك من إحدى خصلتين: الإسلام أو الجزية، فإذا أبيت الإسلام فأدِّ الجزية عن يد وأنت صاغر».

رد جرجير:

أرسل جرجير رداً على رسالة عبدالله يقول فيه:

«لو طلبتم مني درهمًا واحداً ما أعطيتكم، ولا تتحدث الملوك عني بذلك أبداً».

جرجير يستعد للحرب:

وأسرع جرجير في طيش يجمع جيشه، معلنًا استعداده لحرب المسلمين، ورغبته في القضاء عليهم، وإعادة نفوذ الروم ومكانتهم، ذلك لأنه كان يخضع لهم، ويدفع لقيصر الروم الهارب هرقل الخَرَاج، وهو مبلغ كبير من المال يجمعه من البربر.

أما لماذا يدفع جرجير هذا المبلغ للروم؟ بل يحارب المسلمين ليثبت ملكه وملك الروم، مع احتمال تعرضه للخطر الشديد هو وجيشه، فذلك لأنه ظالم يعمل لحساب الروم الجبابرة الذين يساعدونه على ظلمه، وهو إن تخلى عن الروم لم يجد ناصراً بدلاً منهم، وهو إن أعمل عقله، وقبل أن يدفع الجزية للمسلمين، فلسوف يعملون على نشر الإسلام في أرض إفريقية، وجرجير يعرف تمام المعرفة أن البربر متعطشين إلى الإسلام، شديدي الرغبة إليه، لما فيه من عدل وأمان يفتقدونه في حكمه، فما من سبيل أمام جرجير إلا الدفاع عن ملكه بما يستطيع من قوة.

وجمع الجند وحاول خداعهم بالآمال الزائفة، كي يدافعوا عنه، ظنًا منه أنه يستطيع الوقوف في وجه المسلمين، وقد قضوا على أغلب ملك الروم، ولم يبق إلا ملكه حتى يطهروا شمال أفريقيا كلَّه.

الفصل الخامس

المعركة

قوة جيش جرجير:

طاش عقل جرجير، وعلم أنه يدافع عن متعه وملذات حياته التي تعود عليها: الحياة المرفهة، والعز والنعيم، واللذة والخدم والأتباع، والأوامر التي تنفذ فور نطقه بها مهما كانت ظالمة لذلك فقد جمع لحرب المسلمين مئة وعشرين ألفاً من المقاتلين وسار بهم حتى مكان قريب من سُبَيْطِلة.

استعداد المسلمين للحرب:

وبلغ خبر استعداد جرجير لقتال المسلمين، فجمع الجند، ثم عزم على السير إليه ومقاتلته، ولأن المسلمين في شؤون حياتهم متساوون، فلقد كان من حق كل جندي منهم أن يعرض رأيه على القائد، ويُشير عليه بما يراه، والشورى أمر عظيم تميَّز الإسلام بها، وأتاح لأتباعه أن يظهروا قدراتهم الخاصة، واثقين من أن القائمين على الحكم سوف يأخذون برأيهم مادام صحيحاً، وفيه مصلحة المسلمين، ولذلك قام واحد من الناس من أهل مصر، فأعلن أن رأياً يريد أن يبلغه للقائد عبدالله بن سعد، فأعلن عبدالله استعداده للاستماع إليه، فقال الرجل الذي حرص على أن يكون اسمه مجهولاً:

أيها الأمير، إن أهل إفريقية لا يُصَافونك – يصالحونك – وهم أرعب – أقوى – قلوبًا من ذلك، ولكن اجعل لهم كميناً أن لا يفلت منهم أحد فإنهم قوم يهربون في وقت الحرب.

يوجه الرجل كلامه لعبدالله، فيخبره أن الجند الذين خدعهم جرجير، وجمعهم لقتال المسلمين لن يصالحوه قبل الحرب، فهم أقوى قلوبًا من أن يطلبوا الصلح، ولكنهم في وقت الحرب، حينما يرون الموت بعيونهم يفضلون الهرب، ولذلك فإن على عبدالله وجيش المسلمين أن يجعلوا بعضاً منهم مختبئين في مكان مجهول ويفاجئون جنود الأعداء إذا ما أرادوا الهرب من ساحة المعركة.

عبدالله يأخذ برأي الرجل المجهول:

رأى عبدالله صحة رأي هذا الجندي المسلم الذي لم يعلن اسمه، فجهز بعضاً من جنود المسلمين الماهرين، ووزعهم بعناية في مواقع مختلفة من ميدان المعركة، ووضع خطته للمعركة بناء على رأي هذا الرجل المسلم إلى أن يحدث جديد، وفي تصرف هذا الجندي عظمة لم يشهدها التاريخ إلا في وجود المسلمين، فهذا الجندي لا يعلن اسمه حتى لا ينال شيئاً من شهرة في الحياة الدنيا، فيبقى الأجر والثواب كاملاً مدخراً له عند الله يوم القيامة.

المعركة:

وأقبل الجيشان على ميدان المعركة، وقف المسلمون في عددهم القليل، فثلاثة وعشرون ألف مقاتل أمام مئة وعشرين ألفًا من أتباع جرجير! إن العدو يزيد على خمسة أضعاف جيش المسلمين، وما زاد في خطورة الموقف أمام المسلمين أن جرجير أمر أتباعه أن يحيطوا بالمسلمين من كل ناحية، كما يحيط ضوء الشمعة بفتيلها، فوقف المسلمون في موقف لم يروا أصعب منه، ولا أخوف على أنفسهم رغم كثرة المعارك التي دخلوا فيها.

تعمد جرجير إبراز قوته بهذه الطريقة كي يوقع اليأس في قلوب المسلمين، ولكن أنصار الله من اعتادوا الجهاد في سبيله، استعانوا بخالقهم، وتيقنوا أنه ناصرهم في وقت الشدة، طالما بذلوا أقصى ما لديهم من طاقة، وعلى ذلك فرغم هذا الموقف إلا أنهم ثبتوا، ودعوا جرجير إلى الإسلام أو الجزية، فلم يقبل بأحدهما، فأشهدوا الله أنهم بذلوا ما لديهم، ولم يبق أمامهم إلا محاربة هذا الطاغية، والجنود الذين جمعهم.

وبدأ القتال، والتهبت ساحة المعركة بالمسلمين، وهم كالأسود يزأرون - الزئير صوت الأسد - ويقبلون على عدوهم فلا يخافونه، وأهل إفريقية يظنون أن عددهم الزائد سيجلب النصر لهم.

وازدادت حرارة الشمس، وازاد لمعان سيوف المسلمين تقاوم ضربات عدوهم، وتصبر حتى يحكم الله بينهم وبين أعدائهم.

المـــدد:

كان عثمان بن عفان حاكم المسلمين في المدينة المنورة يتطلع إلى أخبار المسلمين في إفريقية، شديد الاهتمام بأمر المعركة الخطيرة التي يخوضونها في تلك البلاد البعيدة، يسأل الله النصر والتمكين لهم، ومرت الأيام فانقطعت أخبار عبدالله بن سعد وجيشه عنه، فأحس بقلب المؤمن الصافي بأن أمراً خطيراً يواجهونه يشغلهم عن مراسلته، وتوقع أنهم يستعدون لمواجهة عدو يزيد على عددهم، فحدَّث أحد الصحابة، وأحد أبرز المقاتلين الشجعان بما يُحِسّ به ، أخبر عثمانُ عبدَالله بن الزبير الشاب ابنَ أحد كبار الصحابة الزبير ابن العوام ثم أمر عثمانُ عبدالله أن يسير إلى إفريقية . وقد توقع الرسول ﷺ له أن يكون أحد أبطال المسلمين الشجعان، وها هي الفرصة تبدو أمام عبدالله كي يكون بطلاً عظيماً مثل أبيه، وينفع نفسه ودين الله وجموع المسلمين، لذلك سار حتى إفريقية لمناصرة جيش المسلمين هناك ضد عدوهم الجبار، وكيف يتأخر وهو الصحابي الذي تعلم الشجاعة على يد الرسول ﷺ، وهو ينتظر أن يكون رفيقه في الجنة، بإيمانه وحسن عمله وجهاده.

سار عبدالله بن الزبير، ومعه عدد من المسلمين كمدد، وبالفعل وصلوا إليهم في الوقت المناسب.

توفيق من الله:

عندما يأذن الله بالخير فإنه يسبب من الأحداث ما لم يكن متوقعًا، ويأتي بالفرج في الوقت الذي يشتد الضيق فيه، كذلك كان المسلمون في ميدان المعركة يشعرون بخطورة الموقف، ويبذلون ما في وسعهم لصد هجوم جموع الروم، صابرين، تتمتم شفاههم بالدعاء إلى الله كي يُقوِّيهم، فيقول أحد المؤرخين(١) : إن عبدالله بن الزبير قد وصل بمن معه من المسلمين في وقت اشتدت فيه المعركة، وصَدَق قلب عثمان فيما أخبره به من حاجة المسلمين إلى إخوانهم كي يساعدهم.

«الله أكبر» تهز ساحة المعركة:

وحين أبصر المسلمون المدد - الجيش المساعد - صاحوا:

الله أكبر.

مما جعل الخوف والرعب ينتشران في جيش جرجير الذي أسرع يسأل عن سبب فرحة المسلمين فأخبره بعض رجاله بوصول المدد بقيادة أحد أبرز

(١) تاريخ ابن خلدون - جـ٢ - ص ١٠٠٤.

شجعان المسلمين، وراحوا يصورون عدد الجيش على أنه كبير جداً، نظراً لما سمعوا من فرحة جيش عبدالله بن سعد الذي يحارب منذ البداية به. أحس جرجير بالخوف من أن تزداد قوة المسلمين، فلا يستطيع أن ينتصر عليهم، فأخذ يحمس جنوده لبذل المزيد من الجهد في القتال، وأعلن عن عرض لم يحدث من قبل في معركة دخلها المسلمون.

عرض جرجير:

إنه يعرف في قرار نفسه أن أتباعه من أهل إفريقية إنما يقاتلون وأعينهم إلى الحياة الدنيا، يريدون الاستمرار فيها، ويحرصون على عدم التفريط فيها، أما ما يراه من المسلمين في ميدان المعركة فعكس ذلك تمامًا، ذلك أنهم يقاتلون وأعينهم إلى الآخرة، وهم يطلبون الموت، فالذي يطلب الموت في ساحة المعركة أشد خطراً من ذلك الذي يطلب الحياة، لذلك خاف جرجير أن يتمكن المسلمون بشجاعتهم واستبسالهم، وقوة إيمانهم أن يهزموا جنوده على كثرتهم فينهار ملكه، ويخسر كل شيء، ولما كان يعلم حب جنوده للدنيا، ومضيره وخسارته لكل شيء إذا خسر المعركة، فلقد عرض عرضاً فريداً من نوعه يمكنه من هزيمة المسلمين، وينهي المعركة مبكراً ولا يخسر فيه كثيرًا.

علم جرجير أن قتل قائد المسلمين وحامل رايتهم عبدالله بن سعد سوف يضعف من قوتهم، وزينت نفسه له أن هذا سوف ينهي المعركة مبكراً، لذلك أعلن في جنوده أن قاتل عبدالله بن سعد له مكافأة كبيرة تصل إلى مئة ألف دينار، وهو مبلغ كبير جداً يحلم كل جندي من أهل إفريقية في الحصول عليه، ولم يكتف جرجير بذلك وإنما أرسل منادياً في الجيش ليعلن أن جرجير – زيادة على المئة ألف دينار – سوف يزوِّج ابنته الأميرة من قاتل عبدالله بن سعد، وبذلك يضمن قاتله الإمارة؛ إذ سيتزوج بنت الملك، والمال الوفير الذي يكفيه مدى الحياة.

عبدالله بن الزبير يرد على عرض جرجير:

إن جنود جرجير لا يعرفون عن حياتهم إلا ما يأخذونه في هذه الدنيا، ولقد أغراهم ملكهم، فأصبح كل واحد منهم يتمنى قتل عبدالله بن سعد الذي خاف أن يؤثر استشهاده على عزيمة المسلمين، ويُنهي المعركة لصالح عدوهم، لذلك فضَّل أن يدير المعركة من خلف الصفوف، فاقترح عبدالله بن الزبير عليه حلاً آخر، يأتي بنتيجة عكسية، ويرد كيد جرجير إلى نحره، ذلك أنه اقترح أن يأمر عبدالله بن سعد منادياً كي يخبر المسلمين بأن:

– مَنْ قتل جرجير نفلته – أي أعطيته – مئة ألف دينار، وزوَّجْته ابنة

جرجير، واستعملْتُه - أي: جعلته - حاكماً على بلاده.

ووافق عبدالله بن سعد على اقتراح عبدالله بن الزبير، وسار منادٍ في الجيش يعلن أن قاتل جرجير له مئة ألف دينار، ويتزوج ابنة جرجير، ويحكم إفريقية. هذا غير جزاء الآخرة، والثواب الكثير عند الله تعالى. فأخذ الجنود المسلمون يبحثون عن جرجير بين صفوف العدو، لا رغبة في أخذ المكافأة المالية، أو التزوج بابنته، أو حكم بلاده، فما كان كل هذا ليعدل ثواب الله لديهم؛ بل لأنهم علموا أن قائدهم يريد أن ينهي المعركة الشديدة بقتله، وفي طاعة قائدهم رضا الله، وسمع جرجير بعرض عبدالله بن سعد فخاف على نفسه أشد الخوف.

الفصل السادس
تعديل في خطة المسلمين

فترة راحة:

واستمر القتال في اليوم الأول من أيام المعركة حتى غربت الشمس، ففرض الليل بظلامه فترة راحة على الجيشين، وانتهز المسلمون الفرصة، فراحوا يراجعون ما حدث بدقة، مستوعبين أحداث المعركة الرهيبة، راغبين في إنهائها عند مجيء شمس الغد، راح القائد عبدالله بن سعد يسائلهم المشورة، ويطلب الرأي، فإن الحرب خدعة كما قال الرسول ﷺ، والمسلمون قد قاتلوا طوال النهار قتالاً شديداً وثبتوا أمام عدوهم ثباتاً أذهل الشجعان منهم، ولكنهم رغم وصول المدد إليهم، لم يستطيعوا التغلب على عدوهم، ولم يهرب أهل إفريقية من أمامهم كما توقع الرجل المسلم، الذي أشار على عبدالله بن سعد بتنظيم الأكمنة، والمسلمون يخشون أن تطول أيام المعركة.

كان حلول الليل فرصة أمام المسلمين كي يفكروا جيداً في حيلة ينهون المعركة بها لصالحهم، وراحوا في الصلاة يتضرعون إلى الله ويسألونه النصر.

تعديل في الخطة:

وتحدث الصحابي العظيم عبدالله بن الزبير فقال: إنه من المناسب أن يترك عبدالله بن سعد القائد بعضاً من مشاهير المسلمين وأبطالهم الشجعان في خيامهم مستخفين عن عيون عدوهم، ويخرج ببقية الجيش فيقاتلهم، حتى يرى فيهم التعب الشديد، والرغبة في نيل بعض الراحة، هنا يتراجع الجيش الذي كان يقاتل، كي يتقدم المسلمون المختبئون في الخيام، فلعل الله أن يجعل في هذه الحيلة النصر للمسلمين.

موافقة القائد على تنفيذ الخطة:

كان أعيان الصحابة حاضرين، قد استمعوا إلى كلمات عبدالله بن الزبير، وأعلنوا موافقتهم عليها، ووافق عبدالله بن سعد على تنفيذها.

بداية القتال في اليوم الثاني:

وأشرقت شمس اليوم الثاني من أيام المعركة، والدماء في ساحتها لم تجف بعد، ولكن على المسلمين أن يواجهوا أعداءهم المعاندين الذين صموا آذانهم وعقولهم وقلوبهم عن صوت الحق مرة ثانية، وكما فعل أهل إفريقية بالأمس فعلوا اليوم، إذ إنهم رفعوا صلبانهم عالية، وأبرزوا أسلحتهم التي لا يعلم عددها إلا الله.

وتداخل الجيشان من جديد، وجرجير وأتباعه لا يعلمون أن فريقاً من شجعان المسلمين في خيامهم لم يخرجوا بعد.

وأقبل وقت الظهيرة، ووضح أن أهل إفريقية يريدون التراجع، فسار وراءهم المسلمون، وخاف جرجير أن يهزم جيشه، فقرر أن ينسحب حتى يرتاح المقاتلون بعض الوقت، هنا كانت المفاجأة.

النهاية:

وكعادة المسلمين في ادخار شيء لم يكن يخطر على بال عدوهم، ويقلب توقعاتهم، ويجعل المعركة كلها في صالحهم، وينهيها في سرعة وحسم، فقد وفقهم الله بعد ما اختبر قوة إيمانهم، وثباتهم في ميدان المعركة، وابتلاهم بكثرة عدد وسلاح أهل إفريقية فصبروا، وأطاعوا الله، ونفذوا أوامر قائدهم، فكان لهم ما أرادوا إذ إنهم عند الظهر قد تراجعوا بقوتهم، فتقدم المسلمون المرتاحون في الخيام، أصحاب الخيل المعدة للقتال، بينما خيل أهل إفريقية متعبة قد خاضت حرباً شديدة أضعفت قوتها، وأصحابها يشتهون الراحة.

كانت المفاجأة شديدة قاسية على نفوسهم إذ ظهر في هذه اللحظة أمامهم جيش جديد للمسلمين فكادوا يفقدون عقولهم، وظنوا مدداً مثل

جيش الأمس قد جاءهم الآن، ولم يستطيعوا فهم متى وكيف جاء الجيش بهذه الطريقة المنظمة وفي هذه اللحظة الحاسمة بالذات.

أسرع جرجير بجيشه إلى الخيام، والمسلمون خلفهم تلمع سيوفهم في أيديهم حتى دخلوها عليهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً.

مقتل جرجير:

ووجد عبدالله بن الزبير الوقت مناسباً للقضاء على كبير المتجبرين جرجير، فطلب من عبدالله بن سعد أن يرسل خلفه الذي يحمي ظهره كي لا يطعنه أحد من الأعداء غفلة، ثم تقدم نحو جرجير، وبعض المسلمين يحمونه حتى وصل إليه، فكان قريباً ولم ينتبه أحد ممن حوله إلى غرضه، وأدرك جرجير هدف عبدالله، فأراد أن يهرب فلم يستطع ولحق عبدالله به، وطعنه برمحه، ثم تناول السيف ففصل رأ سه عن عنقه، ثم أخذه فجعله في أعلى رمحه.

وحين رأي البربر رأس قائدهم معلقة في أعلى رمح عبدالله أيقنوا أن المعركة قد انتهت بالفعل، وأن الذي سوف يبقى في مكانه منهم سوف تلحق سيوف المسلمين به فاصلة رأسه عن جسده، كما فعلت بعظيمهم وحاكمهم جرجير ، فتفرقوا، وأسرعوا هاربين، فمنهم الذي قُتِل، ومنهم

الذي أُخذ أسيراً – وهو الجندي المهزوم في المعركة يؤخذ حيًّا – أما عن ابنة جرجير التي أعلن أنه سوف يزوجها لقاتل عبدالله بن سعد قائد المسلمين فقد أُخذَت أسيرة، وقيل إنها انتحرت حزناً.

أما المال الذي أعلن جرجير أنه سوف يعطيه هدية لقاتل قائد المسلمين فقد صار كله ملكاً لهم، ونال كل مقاتل مسلم مبلغًا كبيراً منه، فقد كان نصيب الفارس منه ثلاثة آلاف دينار، أما المحارب على قدميه فقد حصل على ألف دينار، ودخل المسلمون مدينة سبيطلة بعدما حاصروها، ولم يكتفوا بذلك بل نشروا قواتهم في البلاد معلنين سطوع شمس الإسلام على إفريقية.

الصلح:

وطلب أهل إفريقية مصالحة المسلمين على أن يدفع أهل إفريقية مبلغاً عظيماً هو ألفي ألف – مليونين – وخمسمائة ألف دينار كما ذكر ابن خلدون في تاريخه، ثم إنهم أسلموا بعد ذلك، وحسنت طاعتهم للمسلمين لفترة.

كان فتح المسلمين في هذه المعركة عظيماً، إذ يروي أحد كبار المؤرخين[1] في تاريخه أن الله قد أنعم على المسلمين بفتح إفريقية سهلها

(١) الطبري – جـ٤ – ص ٢٥٤.

وجبالها بهذه المعركة، وقد اشتهر فيها أمر عبدالله بن الزبير، وتحققت بشارة الرسول ﷺ له، وبرز دوره.

وصول خبر النصر إلى عثمان:

وعلم هرقل قيصر الروم بأمر الهزيمة الجديدة فأصابه الحزن والغم الشديد، أما عثمان بن عفان أمير المؤمنين وحاكم المسلمين فقد فرح فرحاً عظيماً، وحمد الله، وشكره بنصر الله لجنده، وانتشار العدل والخير والحق في إفريقية، بحكم المسلمين لها، وكان عبدالله قد أرسل خُمْسَ المال الذي غنمه المسلمون من إفريقية إلى المدينة فقسمه عثمان الحاكم الأمين بين المسلمين من أهل المدينة.

دور عبدالله بن الزبير:

وكما كان لعبدالله بن الزبير دور خطير منذ قدومه إلى إفريقية، فقد قيل إنه هو الذي حمل خبر النصر إلى عثمان والمسلمين في المدينة، إن أمير المؤمنين حينما استمع إلى وصفه للمعركة سُرَّ به، وأمر أن يصعد المنبر كي يخبر المسلمين بما أخبره، ففعل دون أن يتلعثم أو يتلجلج - يضطرب - إلا حينما دخل أبوه الزبير بن العوام المسجد، ففوجئ بابنه خطيباً في المسجد يُعْلِمهم بالنصر، وقد اضطرب البطل الشجاع هيبة واحتراماً لأبيه، الذي

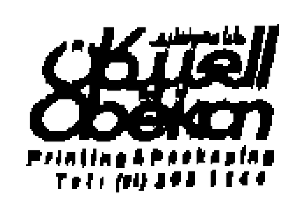
انتظر حتى أنهى خطبته، وقام إليه فعانقه قائلاً :

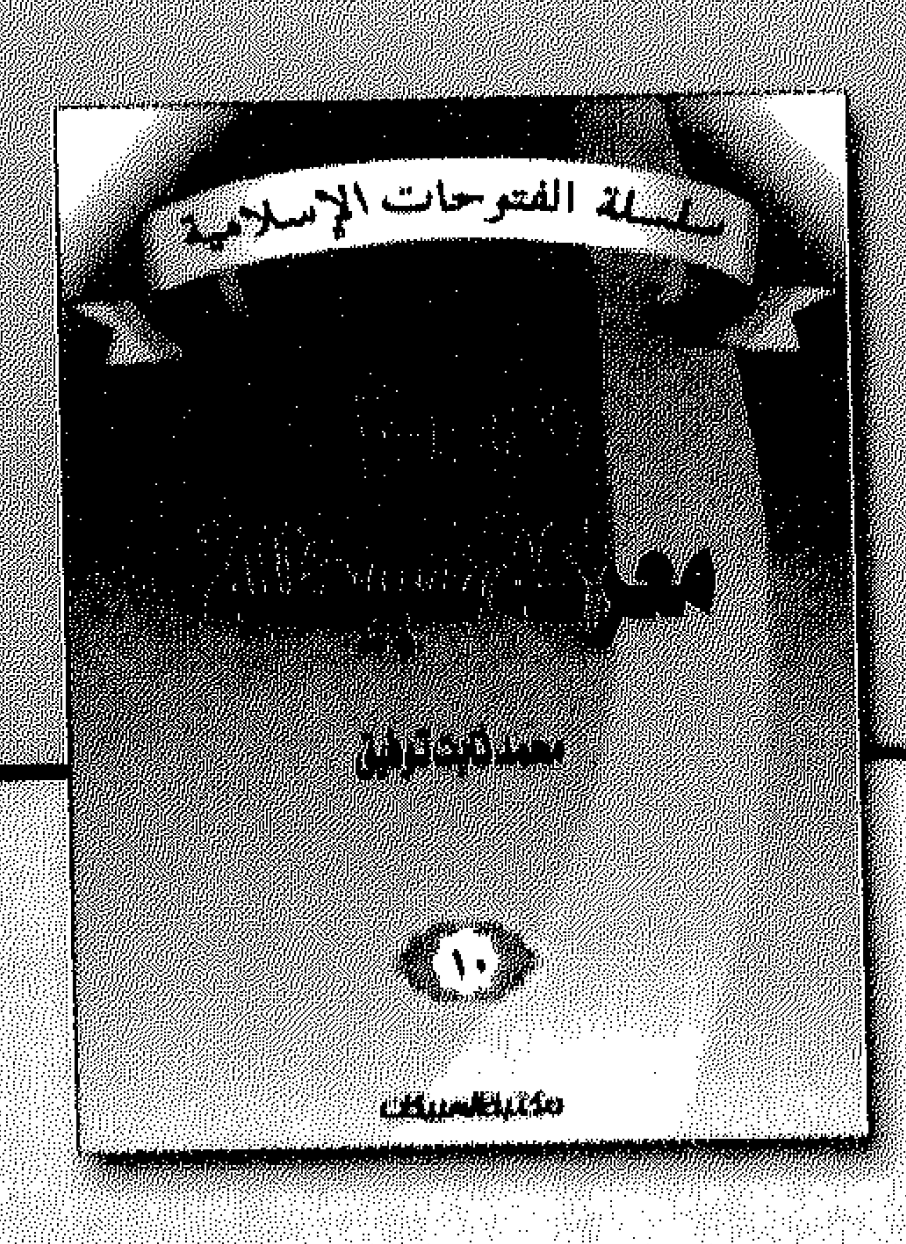
والله لكأني أسمع خطبة أبي بكر الصديق حين سمعتُ خطبتك .

وهكذا أتم الله نصره على المخلصين من عباده المسلمين بفتح إفريقية ، ودخول الإسلام إليها .

المحتويات

الموضوع	الصفحة





قضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن تكون رسالة الإسلام جامعة لما سبقها من الرسالات، ناسخة لها؛ ومن هنا كان إبلاغها إلى الناس كافة يحتاج إلى كثير من المشاق والصعاب لنشر دين الحق.

انطلقت جيوش المسلمين إلى خارج شبه الجزيرة حاملة رسالة الإسلام رسالة النور والهداية إلى الناس جميعاً من منطلق أن المسلمين يحبون الخير لكل الناس كما يحبونه لأنفسهم؛ لذا فهم يدعونهم إلى الإسلام، وهمهم الأول الدعوة لا القتال.

لقد توجهت جيوش الفتوحات الإسلامية إلى كل البقاع التي كانت تستطيع أن تصل إليها حتى انتشر الإسلام من الصين إلى حدود فرنسا، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وعم نور الإسلام الدنيا كلها.

ومكتبة العبيكان إذ تسعد بنشر هذه المجموعة م
الإسلام إنما تعرض صفحات مشرقة من تاريخ الجهاد
ليقف شباب هذه الأمة على بطولات أسلافهم في س
دعوة دينهم؛ ليكونوا قدوة لهم في صدق الجهاد.

والله من وراء القصد

